مداخل تطوير الدَّرس العقدي من خلال التراث العقدي بالغرب الإسلامي

عمر مبركي*

الملخص

يُقدِّم البحث وصفاً إجمالياً لواقع الدَّرس العقدي، ويوضح بعض المشكلات التي تُعطِّله عن أداء وظائفه، مثل: مواكبة المستجدات الحياتية، والتصدي للتحديات والشبهات التي تواجه مسلم اليوم، وتُهدِّد عقيدته وقيمه. يتركَّب هذا البحث من عنصرين رئيسين، خُصِّص الأول لبيان أهم مشكلات الدَّرس العقدي المعاصر، واقتصر النقاش فيه على ثلاثٍ منها، هي: مشكلة التعقيد والتجريد، ومشكلة فصل النظريات العقدية عن الواقع، ومشكلة ابتعاد الدَّرس العقدي عن المنهج القرآني في بيان المطالب التوحيدية. في حين تضمَّن العنصر الثاني مقترحات لبعض المداخل الضرورية التي تفيد في تطوير هذا الدَّرس وتجاوز مشكلاته، بناءً على نماذج مضيئة من التراث العقدي في الغرب الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: الدَّرس العقدي، مداخل التطوير، التراث العقدي، التجديد، علم الكلام.

Approaches for Development of Studying Doctrine through Doctrine Heritage in Muslim West

Omar mbarki

Abstract

This paper presents an overview description of the actual state of studying Islamic Doctrine by shedding light on some problematic issues that negatively affect the purpose of its study, such as keeping pace with the latest developments in life, and addressing the challenges and suspicions facing the Muslim of today and threatening his faith and values.

The present paper has two parts, the first is devoted to the most important problems related to the study of Islamic Doctrine, with special focus on three of them: the complexity and abstraction, the detachment of doctrinal theories from reality, and the week link to the Qur'anic approach in addressing monotheistic demands. The second part provides suggestions of necessary approaches to develop the study that would overcome its problems, based on illuminating examples of the doctrinal heritage in the Islamic West.

Keywords: Doctrinal study, Approaches of development, Doctrinal heritage, Innovation, Islamic theology.

---

* دكتوراه في العقيدة، جامعة القاضي عياض، 2012م، أستاذ العقيدة المشارك، دار الحديث الحسنية، جامعة القرويين- المملكة المغربية. البريد الإلكتروني: omarmbarki12@gmail.com

تم تسلم البحث بتاريخ 2018/10/2م، وقُبل للنشر بتاريخ 2019/3/11م.

مقدمة:

ينطلق البحث من فكرة مفادها أنَّ الدَّرس العقدي يشكو عللاً كثيرة، عطَّلته عن أداء وظائفه الحقيقية، من مثل: مواكبة المستجدات الحياتية، والتصدي للتحديات التي تواجه المسلم اليوم وتُهدِّد عقيدته وقيمه.

ويعزو البحث هذه العلل إلى انغلاق الدَّرس العقدي في قوالب قديمة، أدَّت -بلا نزاع- دوراً مهماً في تحصين الهوية الحضارية للمسلمين في وقت ما، لكنَّها صارت اليوم غير قادرة على أداء نفس الوظائف؛ ما أدّى إلى ظهور بعض الآفات والمشكلات التي علقت بهذا الدَّرس وصحبته منذ زمن غير يسير.

ويسعى البحث إلى تقديم وصف إجمالي لواقع الدَّرس العقدي عن طريق بيان بعض مشكلاته، وعرض المداخل الضرورية لتطويره وتجديده، وذلك بالإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما الأسباب الرئيسة التي أدَّت إلى تعطُّل أدوار الدَّرس العقدي، وتخلُّفه عن معالجة المشكلات الحقيقية التي تواجه الأُمَّة الإسلامية وتُهدِّد كيانها الحضاري؟

- ما المداخل الكفيلة بتجاوز مشكلات هذا الدَّرس، وإعادة الحياة إليه، ونفخ الروح فيه، بما يجعله قادراً على أداء الوظائف التي ألمحنا إليها آنفاً؟

- كيف يمكن الاستفادة من بعض نماذج تراثنا المضيئة في صياغة خطاب عقدي يلامس واقع الناس ويخاطب عقولهم وأفئدتهم في آنٍ معاً؟

ويضع البحث نَصْب العين، وهو يجيب عن هذه الأسئلة، بعض الأعمال والمؤلَّفات التي وقفت على عِلل هذا الدَّرس، وقدَّمت بعض الأفكار والمشاريع الجديرة بتطويره وتجديده، مثل كتاب "الإيمان بالله وأثره في الحياة" لعبد المجيد النجار، الذي ضمَّنه تقويماً لعِلم العقيدة يتَّسم بالاختصار والدقة في الآن نفسه؛ إذ أشار إلى أنَّ هذا العلم قد أصابه الجمود والتقليد في إحدى مراحله، فاقتصر المشتغلون به على ما ألَّفه الأسلاف؛ شرحاً، واختصاراً، وتحشية، من دون إضافةٍ تُذْكَر إلى الموضوع والمنهج، "فأصبح هذا العِلم في

الغالب ألفاظاً ومصطلحات تُردد، واستدلالات تتكرر، دون أنْ تكون لها صلة بوضع العقيدة الإسلامية في واقعها الزمني من حيث ما يتجه إليها من المطاعن والشُّبه."[١] وقد انتهى النجار إلى أنَّه من الضروري في حقِّ هذا العِلم أنْ يتطوَّر، وأنْ تتغيَّر فيه بعض الشروح والاستدلالات والردود بما يضمن للحقائق العقدية الفهم والاقتناع.[٢]

ومن المؤلَّفات التي تتصل أيضاً بموضوع البحث، كتاب "كبرى اليقينيات الكونية: وجود الخالق ووظيفة المخلوق" لمحمد سعيد رمضان البوطي، وقد تضمَّن دعوة صريحة إلى تجديد الدَّرس العقدي؛ لأنَّ المطولات والمختصرات العقدية التي ألَّفها الأسلاف، والتي استعانوا فيها بموازين الفلسفة اليونانية والمنطق الصوري، لم تعد كافية للردّ على الشُّبَه الجديدة؛ ذلك أنَّنا اليوم أمام شُبَه من نوع جديد، شُبَه ترتبط بنظرية التطوُّر والنشوء، وبنظرية المذاهب الجديدة في تفسير بَدء الكون والوجود، وبالانبهار الذي تركته الاكتشافات العلمية في بعض العقول.[٣]

ولا بُدَّ أنْ نشير هنا أيضاً إلى المشروع التجديدي الذي بشَّر به مالك بن نبي؛ فقد استطاع أنْ يربط القضايا العقدية التي تناولها في مؤلَّفاته بالمشكلات الحقيقية التي تواجه الأُمَّة الإسلامية وتُهدِّد كيانها، مستفيداً من مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية، مثل: التاريخ، والأنثروبولوجيا، وعلم النفس، وعلم الاجتماع.[٤]

---

[١] النجار، عبد المجيد. **الإيمان بالله وأثره في الحياة**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997م، ص23.

[٢] المرجع السابق، ص13.

[٣] البوطي، محمد سعيد رمضان. **كبرى اليقينيات الكونية: وجود الخالق ووظيفة المخلوق**، دمشق: دار الفكر، 1997م، ص23.

[٤] استعار ابن نبي بعض الأفكار من حقل علم الاجتماع لبيان أهمية الفكرة الدينية (الإيمان) في سدِّ الفراغ الاجتماعي الذي قد يحصل في بعض المجتمعات، واستثمر بعض نظريات علم النفس في الاستدلال على أنَّ أساس نشأة الحضارات هو الفكرة الدينية. انظر:

- ابن نبي، مالك. **شروط النهضة**، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، إشراف: ندوة مالك بن نبي، دمشق: دار الفكر، د.ت، ص70.
- ابن نبي، مالك. **ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية**، دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر، ط3، 1406هـ/1986م، ص53.

وهكذا، فإنَّ البحث ينتظم في سلك هذه المشاريع العلمية الحضارية، التي تتغيا تطوير الدَّرس العقدي وتجديده حتى يعود كما كان موصول الصلة بتحديات الأُمَّة ومشكلاتها الحقيقية.

أولاً: مشكلات الدَّرس العقدي المعاصر

يشكو الدَّرس العقدي المعاصر مشكلات كثيرة، كما أشرنا إلى ذلك في المقدمة، وسنكتفي هنا ببيان ثلاث منها؛ أمّا الأُولى فمشكلة التعقيد والتجريد التي من أهم أسبابها الامتزاج الذي حصل بين علم العقيدة ومباحث المنطق والفلسفة اليونانية، وأمّا الثانية فمشكلة فصل النظريات العقدية عن الواقع، وقد استفحلت هذه المشكلة لـمّا أغرقت طائفة من علماء العقيدة في مزاولة بعض الأبحاث التجريدية التي لا تَعلُّق لمعظمها بتحديات الأُمَّة وهمومها الحقيقية. وأمّا الثالثة، وهي أُمُّ المشكلات ورأسها، فتتمثَّل في ابتعاد الدَّرس العقدي عن المنهج القرآني في بيان المطالب التوحيدية.

1. مشكلة التعقيد والتجريد:

كانت مباحث علم العقيدة، في مراحله الأُولى، تُقدَّم بطريقة فريدة تتَّسم بسهولة التناول، وبساطة العرض، بعيداً عن التجريد والتعقيد والإلغاز، فحظيت بقبول الناس على اختلاف مستوياتهم وأعمارهم، لكنْ سرعان ما حدث فَتْق في هذه الطريقة، لـمّا انشغل الدَّرس العقدي بالتصدي للأبحاث النظرية على حساب القضايا الواقعية المتصلة بواقع الناس ودنياهم، وصار عالِم العقيدة يُحلِّق بفكره في قضايا افتراضية، بعضها حُسِم الكلام فيه منذ زمن بعيد، وبعضها لا يُثمِر عملاً، ولا يُنتِج علماً نافعاً، وبعض آخر لا يُورِّث سوى الشقاق والنزاع بين أبناء الأُمَّة. وقد كان من مخرجات هذا الأمر تعقُّد مصطلحات هذا العلم، وصعوبة مباحثه، حتى صارت مغلقة على الطالبين،[5] فكان ذلك ذريعة لابتعاد

---

[5] اعترف بعض أكابر المتكلمين بصعوبة بعض مباحث هذا العلم، مثل الرازي الذي لم يتردد في كتابه "المطالب العالية" في التصريح بذلك بعبارات متقاربة المعنى، ومن ذلك قوله: "... فثبت أنَّ أكابر الأنبياء صلوات الله عليهم سكتوا

الطلاب عن مزاولته والتخصص فيه، مُتعلِّلين بصعوبة مباحثه وعلوِّها على أفهامهم ومداركهم. وإلى هذا أشار محمد عبده (توفي: 1323هـ) في مقدمة كتابه "رسالة التوحيد" قائلاً: "فالمختصرات في هذا الفن ربَّما لا تأتي على الغرض من إفادة التلامذة، والمطولات تعلو على أفهامهم، والمتوسطات أُلِّفت لزمن غير زمانهم."[٦]

والمتتبِّع لتاريخ نشأة هذا العلم يقف على أنَّ آفة التعقيد والتجريد قد تسرَّبت إليه من مدخلين رئيسين؛ أولهما: الامتزاج الذي حصل بين مباحثه ومباحث الفلسفة اليونانية، وثانيهما: إيغال علماء العقيدة في الاستمداد من علم المنطق والتوسُّل بمناهجه وآلياته.

أ. تأثر علم العقيدة بالفلسفة اليونانية:

من المعلوم أنَّ المعتزلة كانت أول الفِرق العقدية الإسلامية اطِّلاعاً على النتاج الفلسفي اليوناني؛ فالمصادر التي أرَّخت للأفكار الاعتقادية الإسلامية تكاد تتفق على أنَّ شيوخ الاعتزال كانوا على دراية بكتب الفلاسفة اليونان، بعد انتشارها في الأوساط العلمية والثقافية منذ زمن المأمون (توفي: 218هـ).

وقد كان أبو الهذيل العلّاف (توفي: 235هـ) من أوائل المعتزلة الذين وجدت النظريات الفلسفية صدى واسعاً في آرائهم وأفكارهم؛ ذلك أنَّه وافق الفلاسفة في بعض القواعد التي بنى عليها نظريته في الصفات الإلهية مثلاً، كما في قوله: إنَّ الله تعالى عالِم بعلم، وعلمه ذاته، وقادر بقدرته، وقدرته ذاته، وحيّ بحياة، وحياته ذاته. وذهب أبو الحسن الأشعري (توفي: 324هـ) إلى أنَّ العلّاف إنَّما نقل هذه القاعدة عن الفيلسوف

عن الخوض في هذه المسألة، وذلك يدل على أنَّها بلغت في الصعوبة إلى حيث تعجز العقول البشرية عن الوصول إليها." انظر:

- الرازي، فخر الدين. **المطالب العالية من العلم الإلهي**، بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، ج4، ص33. وقال أيضاً: "... فإنَّ الكلام في هذه المسألة قد بلغ في العسر والصعوبة إلى حيث تضمحل أكثر العقول فيه." انظر:
- المرجع السابق، ج4، ص27.

[٦] عبده، محمد. **رسالة التوحيد**، د.م: مطابع الهيئة المصرية للكتاب، د.ت، ص11.

اليوناني أرسطو طاليس؛ لأنَّ الأخير قال في بعض كتبه: إنَّ البارئ عِلْم كله، قدرة كله، حياة كله، سمع كله، بصر كله، فحسُن هذا اللفظ عند العلّاف، فقال: علمه هو هو، وقدرته هي هو.[٧]

وقد أشار إلى هذا الشهرستاني (توفي: 548هـ) أيضاً في كتابه "الملل والنحل"؛ إذ ألمع إلى أنَّ العلّاف إنَّما اقتبس نظريته في الصفات الإلهية من الفلاسفة، الذين اعتقدوا أنَّ ذاته واحدة لا كثرة فيها، وأنَّ الصفات ليست وراء الذات معاني قائمة بذاته، بل هي ذاته، وهي راجعة إلى السلوب أو اللوازم.[٨]

ولم يختص العلّاف بالاستفادة من منجزات الفلسفة اليونانية دون غيره؛ فالباحث في التراث العقدي الإسلامي لن يجد كبير عناء في الوقوف على نصوص تشير إلى استفادة أعلام المعتزلة من مباحث هذه الفلسفة، مثل: معمر بن عباد (توفي: 215هـ)، والنظّام (توفي: 221هـ)، والجاحظ (توفي: 255هـ).[٩] ثمَّ جاء بعدهم الأشاعرة والماتريدية، فاستفادوا بدورهم من أبحاث الفلسفة الطبيعية، واستثمروها في البرهنة على إثبات المطالب التوحيدية، والدفاع عن أصول العقيدة الإسلامية ومرتكزاتها.[١٠]

[٧] الأشعري، أبو الحسن. **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، تصحيح: هلموت ريتر، ألمانيا: دار فراتز شتايز، ط3، 1400هـ/1980م، ص485.

[٨] الشهرستاني، محمد. **الملل والنحل**، د.م: مؤسسة الحلبي، د.ت، ج1، ص50.

[٩] يعثر الباحث في التراث الاعتزالي على نصوص واضحة تشير إلى اطِّلاع المعتزلة على كتب الفلاسفة، ومن ذلك ما قاله صاحب "المنية والأمل" عن النظّام: "وكان إبراهيم النظّام من أصحابه (أي من أصحاب أبي الهذيل العلّاف)، ثمَّ خرج إلى الحج، وانصرف إلى طريق الكوفة، فلقي بها هشام بن الحكم وجماعة من المخالفين، فناظرهم في أبواب دقيق الكلام فقطعهم، ونظر في شيء من كتب الفلاسفة." انظر:

- ابن المرتضى، أحمد بن يحيى. **المنية والأمل في شرح الملل والنحل**، تصحيح: توما آرنولد، حيدر آباد: د.ن، 1902م، ص25-26.

[١٠] ذهب إلى القول بتأثر بعض المتكلمين بالفلسفة اليونانية، عددٌ كبير من الباحثين قديماً وحديثاً، على تفاوتٍ بينهم في تحديد مقدار التأثر. انظر:

- ابن ميمون، موسى. **دلالة الحائرين**، عناية: حسين أتاي، د.م: مكتبة الثقافة الدينية، د.ت، ص132-133.
- دي بور، ت.ج. **تاريخ الفلسفة في الإسلام**، ترجمة: عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط4، 1957م، ص84.
- زهيدي، حسن جار الله. **المعتزلة**، د.م: المكتبة الأزهرية للتراث، 2002م، ص116.
- السيد، محمد. **مدخل إلى علم الكلام**، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2001 م، ص130.

ويبدو هذا التمازج واضحاً في المصنَّفات المؤلَّفة في العصور المتأخرة، فمَن يطالع "المطالب العالية" للرازي (توفي: 606هـ)، و"طوالع الأنوار" للبيضاوي (توفي: 685هـ)، و"المواقف" لعضد الدين الإيجي (توفي: 756هـ)، يلحظ غلبة النظر في المسائل الطبيعية في عرضهم لقضايا العقيدة؛ إذ كانوا لا يبدؤون الكلام في الإلهيات والنبوات والسمعيات إلا بعد التمهيد لها بأبحاث مستقلة في الجسم، والجوهر، والمكان، والزمان، والعِلَّة والمعلول، وغير ذلك.

ونرى من المفيد في هذا المقام أنْ نشير إلى أمرين نحسبهما مهمين جداً؛ أولهما أنَّ علماء المسلمين (معتزلة، وأشاعرة، وماتريدية...) لم يكونوا يوردون هذه الأبحاث لهوى في نفوسهم، أو لحشو مصنَّفاتهم بقضايا لا طائل منها، وإنَّما جعلوا ذلك سُلَّماً للإلهيات، وعوناً على إثبات بعض مطالبها وقضاياها؛ فإثبات الجواهر والأعراض، والاستدلال على حدوث الأعراض واستحالة قيامها بنفسها، واستحالة انفكاك الجواهر عن الأعراض، وغير ذلك، إنَّما ساقوه لإثبات حدوث العالَم، وهو أحد مسالكهم الرئيسة لإثبات الوجود الإلهي. وثانيهما أنَّ علماء العقيدة، وإنْ كانوا قد توسَّلوا ببعض مناهج الفلسفة اليونانية كما بيَّنّا آنفاً، فلا يعني ذلك أنَّهم استخدموها بمفهومها القديم المتداول عند اليونان، وإنَّما حاولوا تخليصها من دلالاتها وحمولاتها القيمية لتتلاءم مع التراث الإسلامي وخصوصيته.[11]

ويقتضي الإنصاف والموضوعية أنْ نشير إلى أنَّ الدَّرس العقدي استفاد -بقدرٍ ما- من الانفتاح على الأبحاث الفلسفية اليونانية، حيث أكسبه ذلك عمقاً وقوَّة من الناحيتين: الاستدلالية، والمنهجية. غير أنَّ المتأخرين من علماء العقيدة لم يقفوا عند حدِّ الاستفادة من هذه الأبحاث، بل تطوَّر الأمر إلى حدوث نوع من المزج بين الموضوعات العقدية وبعض موضوعات الفلسفة، وصل حدَّ الخلط بينها، وهو ما أشار إليه السَّعد التفتازاني (توفي: 793هـ)، بقوله: "ثمَّ لـمّا نُقِلت الفلسفة إلى العربية، وخاض فيها

وفي المقابل، رأى آخرون أنَّ للمتكلمين نظراً خاصاً أصيلاً منبثقاً عن فكر إسلامي خالص. انظر:

- النشار، علي سامي. **نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام**، الإسكندرية: دار المعارف، ط4، 1966م، ج1، ص288.

[11] السيد، **مدخل إلى علم الكلام**، مرجع سابق، ص140.

الإسلاميون، حاولوا (أي علماء الكلام) الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه الشريعة، فخلطوا بالكلام كثيراً من الفلسفة ليتحققوا مقاصدها، فيتمكنوا من إبطالها... إلى أنْ أدرجوا فيه معظم الطبيعيات والإلهيات، وخاضوا في الرياضيات، حتى كاد لا يتميز عن الفلسفة لولا اشتماله على السمعيات."[١٢]

ب. تأثر علم العقيدة بالأبحاث المنطقية:

كان المؤلِّفون الأوائل في علم العقيدة يستخدمون الأساليب الاستدلالية التي تناسب المشكلات المطروحة على بساط البحث في زمانهم، وكان الاستدلال النقلي عمدتهم الأُولى في بسط العقائد وبيانها للناس، ولهذا اتَّخذوا من نصوص القرآن والسُّنة شواهد على الآراء الدينية التي يعتقدونها؛ تأصيلاً لها، أو رداً لشُبُهات المناوئين لها.[١٣] ومن المصنَّفات العقدية الشاهدة على هذا النهج في التأليف: كتاب "الإيمان" للقاسم بن سلّام الهروي (توفي: 224هـ)، وكتاب "خلق أفعال العباد" للبخاري (توفي: 256هـ)، وكتاب "القدر" لأبي بكر الفريابي (توفي: 301هـ).

وقد استمر الدَّرس العقدي على هذا الحال من الاعتماد على الدليل النقلي، إلى أنْ بدأ الكلام في بعض المشكلات العقدية لأسباب متنوعة، منها: اتصال المسلمين، ابتداءً من القرن الثاني للهجرة، بأهل الأديان والمذاهب المخالفة لهم من نصارى ومجوس ولادينيين...، وكان هؤلاء متمرسين بالفلسفة اليونانية وبعلم المنطق؛ ما فرض على المسلمين مواجهتهم بنفس السلاح، فاستخدموا المنطق في مناظراتهم، وجعلوه في كثير من الأحيان أداة لتفكيرهم، وآلة يواجهون بها شُبُهات خصومهم. ومن المصنَّفات العقدية التي تشهد على الأثر العميق الذي كان لعلم المنطق في الدَّرس العقدي: "المحصّل" للرازي، و"شرح المقاصد في علم الكلام" للتفتازاني، و"المواقف" للإيجي.

---

١٢ التفتازاني، سعد الدين. **شرح العقائد النسفية**، تحقيق: أحمد حجازي السقا، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، د.ت، ص17.

١٣ انظر:

- النجار، عبد المجيد. **في فقه التدين فهماً وتنزيلاً**، د.م: الزيتونة للنشر والتوزيع، ط2، 1416هـ/1995م، ص146.

ولا يجادل الباحث المنصف في أنَّ الدَّرس العقدي قد أفاد من الدراسات المنطقية من نواحٍ متعددة؛ إذ ظهر ذلك في قدرة المتأثرين بها على صياغة الأصول العامة للعقيدة في شكل قواعد منطقية دقيقة، وفي ترتيب القضايا العقدية وبنائها بناءً منطقياً مرصوصاً يسهل الإمساك بكلياتها ومتعلقاتها.[١٤] ويظهر ذلك أيضاً في التوسُّل ببعض المسلَّمات المنطقية في الاستدلال على أُمهات العقائد، مثل اعتماد بعض المتكلمين، في إثباتهم لوجود الله تعالى، على دليل الوجوب والإمكان.

وعلى هذا، فقد كان للنتاج المنطقي أثر إيجابي واضح في الدَّرس العقدي. بيد أنَّ إسراف طائفة من علماء العقيدة في استعارة منهج المنطق الأرسطي، وتوظيف مفاهيمه في صياغة قضايا العقيدة فيما بعدُ، أفضى إلى تشرُّب التفكير العقدي بهذا المنهج، فانحرفت وجهته، وراح يفتش عن عوالم ذهنية مجرَّدة، بعيدة عن الواقع وتداعياته ومشكلاته، فتغلَّبت النزعة الذهنية على المنحى الواقعي فيه، وتحوَّل علم العقيدة إلى مشاغل عقلية تتوغل في صناعة آراء ومفاهيم لا علاقة لها بحركة الحياة وشجونها.[١٥]

2. مشكلة فصل النظريات العقدية عن الواقع:

ارتبط الدَّرس العقدي منذ نشأته بقضايا الواقع الإسلامي الذي بزغ فيه، وكانت المشكلات التي عالجها مستمدة من واقع المسلمين وهمومهم؛ إذ تصدّى هذا الدَّرس لمواجهة التحديات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي تواجه الجماعة المسلمة. ولأجل الاستدلال على واقعية علم العقيدة في مراحله الأُولى؛ نضرب المثال بطائفة من القضايا

---

١٤ "قسَّم الإيجي موضوعات كتابه "المواقف" إلى مجموعات، تندرج كل واحدة منها باعتبار ما بينها من مناسبة تحت عنوان خاص، يطلق عليه اسم (موقف). فيختص كل موقف بمجموعة متناسبة من هذه الموضوعات، كما تنقسم هذه الموضوعات داخل كل موقف إلى عدَّة (مراصد)، يعالج كل مرصد منها موضوعاً بعينه من موضوعات هذا الموقف. ثمَّ ينقسم هذا الموضوع داخل كل مرصد إلى عدَّة (مسائل)، يتولّى كل مسألة منها عنوان خاص بها يُسمّى (مقصداً)، وقد يشتمل المقصد على عدَّة مباحث." انظر:

- بركة، عبد الفتاح. **شرح مبحث السمعيات من كتاب المواقف في علم الكلام لعضد الدين الإيجي**، الأردن: دار النور المبين للنشر والتوزيع، ط1، 2016م، ص11.

١٥ الرفاعي، عبد الجبار. **تحديث الدَّرس الكلامي والفلسفي**، د.م: نشر المدى، ط1، 2010م، ص50.

العقدية التي قد تبدو بالنظر الأول قضايا تجريدية، لكنَّ التأمُّل الدقيق يثبت أنَّ لها صلة وثيقة بواقع الناس ودنياهم:

– مسائل الصفات الإلهية، التي أسهب علماء العقيدة في تناولها وطرقها، لم تكن مشكلة نظرية مفصولة الصلة عن واقع المسلمين الفكري، وإنَّما كانت جواباً عن بعض الشبهات التي وردت على المسلمين من المُخالِفين لهم، الطاعنين في عقائدهم.

– مسألة النظر العقلي، التي تفتتح بها المصنَّفات العقدية، لم يكن الخوض فيها ترفاً فكرياً، ورياضة ذهنية، وإنَّما كانت رد فعل على التقليد المذموم الذي بدأ يقيِّد حركة الأُمَّة، ويعطِّلها عن الاجتهاد والعمل المنتج الخلّاق.

– مسألة القدر، التي كانت مظنة الاختلاف بين طوائف الأُمَّة وفِرقها، ليست قضية مجرَّدة عن الواقع؛ فعلماء العقيدة لم يتصدوا لبيان موقفهم من هذه المسألة إلا بعدما تفشَّت في المجتمع الإسلامي بعض الظواهر المخالفة للعقيدة السليمة، مثل ظاهرة التعلُّل بالقدر على إتيان المعاصي والآثام.

– مسألة الإمامة، التي صار يفرد لها مبحث خاص في المصنَّفات العقدية، ليست سوى صدى للنزاع الحاصل في مسألة الخلافة.[١٦]

فمهما بدت المشكلات التي تولّى الدَّرس العقدي معالجتها في مراحله الأُولى ممعنة في الافتراض والتجريد، فإنَّ لها متعلقات وذيولاً في واقع المسلمين واهتماماتهم. وقد صار هذا الدَّرس على هذا الهدي معانقاً هموم الأُمَّة، ومتفاعلاً مع واقعها، ومواجهاً التحديات المحدقة بها، حتى أتى على المتخصِّصين في الدراسات العقدية حينٌ من الدَّهر ابتعدوا فيه عن هذا المسار، فانهمكوا في مزاولة بعض الأبحاث التي لا تَعلُّق لمعظمها بتحديات الأُمَّة وهمومها الحقيقية. فتحوَّل هذا العلم من علم حي يُنتِج الحلول، ويفك المعضلات الاجتماعية والثقافية، إلى مجرَّد أفكار نظرية جافة، منقطعة الصلة عن الواقع وتحدياته.

3. مشكلة ابتعاد الدَّرس العقدي عن المنهج القرآني في بيان المطالب التوحيدية:

---

[١٦] النجار، **في فقه التدين فهماً وتنزيلاً**، مرجع سابق، ص143.

نشأ علم العقيدة كغيره من العلوم الإسلامية في حضن القرآن وكنفه؛ فالمتدبر لآيه، والمتمعن في سوره، يقف على أنَّه تضمَّن منهجاً واضحاً للبرهنة على أُمَّهات العقائد ومسائلها، وأنَّه احتوى على أصولها وأدلتها، مُفصَّلة أحياناً، ومُجمَلة أحياناً أُخرى. وقد أطبق على هذه الحقيقة جمهور علماء المسلمين من جميع الطوائف والفِرق الإسلامية.

ومن العلماء الذين نبَّهوا على استيعاب الكتاب العزيز لأدلة العقائد، الزركشي (توفي: 794هـ) في كتابه "البرهان في علوم القرآن"، لمّا ذكر "أنَّ القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، لكنْ أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين."[١٧]

وقد أشار إلى هذا ابن العربي أيضاً في كتابه: "قانون التأويل"؛ إذ نصَّ على "أنَّ كتاب الله مفتاح المعارف، ومعدن الأدلة... فليس إلى غيره سبيل، ولا بعده دليل، ولا وراءه للمعرفة معرس ولا مقيل."[١٨] ثمَّ بيَّن اشتمال القرآن الكريم على أدلة العقائد من وجهين؛ أحدهما أنَّ الأدلة العقلية وقعت في كتاب الله مختصرة بالفصاحة، مشاراً إليها بالبلاغة، مذكوراً في مساقها الأصول، دون التوابع والمتعلقات من الفروع، فكمَّل العلماء ذلك بالاختصار، وعبَّروا عن تلك الإشارة بتتمة البيان، واستوفوا الفروع والمتعلقات بالإيراد. وثانيهما أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أوعب القول في حدث العالَم، ونبَّه لاختلاف الأعراض عليها في الانتقالات، وكرَّر القول في دلالة التوحيد بالتمانع، قال تعالى: ﴿وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ (المؤمنون: 91)، وقال سبحانه: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء:22). وهذان الدليلان هما اللذان بسط العلماء ما يتعلق بهما من فصول وتوابع، ومهَّدوا به لذلك...[١٩]

---

[١٧] الزركشي، بدر الدين. **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، د.م: دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1376هـ/1956م، ج2، ص25.

[١٨] ابن العربي، أبو بكر. **قانون التأويل**، دراسة وتحقيق: محمد السليماني، ط2، 1990م، ص176.

[١٩] المرجع السابق، ص177-178.

وقد وازن بعض العلماء بين البراهين القرآنية والطرائق العقلية التي تستعملها بعض الفِرق في الاستدلال على المسائل العقدية، فوجدوا أنَّ الأُولى تمتاز عن الثانية بخصائص كثيرة، نقتصر هنا على ذكر اثنتين منها:

– البراهين القرآنية براهين واضحة، سهلة المأخذ، قريبة التناول، مبهرة لذوي العقول، ومحيِّرة لهم؛ ذلك أنَّ الباري تعالى ينبِّه "على المعاني التي يستخرجها المتكلمون بمعاناة وجهد، بألفاظ سهلة قليلة تحتوي على معانٍ كثيرة، كما ذكره ﷻ في نقض مذاهب الطبيعيين في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ (الرعد: 4)... وفي غير ذلك من الأبواب التي لا تحصى."[٢٠]

ولوضوح البراهين القرآنية وسهولتها؛ فإنَّ الكل يفهمها ويستوعبها، خلافاً لبعض أدلة المتكلمين التي يستعصي كثير منها على العامة وغير المتخصِّصين. وقد ذكر الغزالي (توفي: 505هـ) هذه الخصيصة في سياق مقارنته بين المسلكين المذكورين (مسلك القرآن، ومسلك أهل الكلام)، قائلاً: "فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس، ويستضر به الأكثرون، بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوي، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مَرَّة، ويمرضون بها أُخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً."[٢١]

– البراهين القرآنية مُنتِجة لليقين، وموصِلة للحق المبين؛ لابتنائها على قواعد البرهان السليم، وعلى المقدمات الصحيحة المفضية إلى القطع واليقين. وقد أشار ابن رشد الحفيد (توفي: 595هـ) إلى هذه الخصيصة قائلاً: "... وذلك أنَّ الطرق الشرعية، إذا تؤمِّلت وُجِدت في الأكثر قد جمعت بين وصفين: أحدهما أنْ تكون يقينية، والثاني أنْ تكون بسيطة غير مركَّبة، أعني قليلة المقدمات، فتكون نتائجها قريبة من المقدمات الأُوَل."[٢٢]

---

[٢٠] اليماني، ابن الوزير. **ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان**، مصر: مطبعة المعاهد د.ت، ص21.

[٢١] الغزالي، أبو حامد. **إلجام العوام عن علم الكلام (ضمن رسائل الإمام الغزالي)**، د.م: دار الفكر، ط1، د.ت، ص59.

[٢٢] ابن رشد، أبو الوليد. **مناهج الأدلة في عقائد الملة**، تقديم وتحقيق: محمود قاسم، د.م: مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1964م، ص148.

فالطُّرق القرآنية في الاستدلال على مسائل العقيدة وغيرها تُولِّد التصديق اليقيني لسائر الناس، ومَن لم يتحصَّل لديه اليقين منها، فهو أحد شخصين؛ إمّا جاحد معاند لها بلسانه، وإمّا شخص لم يعرفها، أو لم تتقرَّر عنده، فسبب عدم التصديق في الحالتين لا يرجع إلى طبيعة الأدلة، وإنَّما يرجع إلى حال الشخص الناظر فيها.[٢٣]

يتحصَّل لنا ممّا ذُكِر أنَّ علماء الأُمَّة من الفِرق كافةً مُقِرّونَ بأفضلية البراهين القرآنية على ما سواها؛ فهي أدلة في متناول الجميع، مُنتِجة للعلم اليقيني، ومُقِرّونَ أيضاً باشتمال الكتاب العزيز على أدلة العقائد وأصولها، وأنَّه ما من دليل صحيح أو كُلِّية من الكُليات المعلومة بالعقل والطبع إلا وقد نطق القرآن بها، واشتمل عليها.

ولكن، بالرغم من هذه الحقيقة المتفق عليها، فإنَّ طائفة من علماء العقيدة ابتعدوا في مصنَّفاتهم العقدية عن التمسُّك بالبراهين القرآنية، وأفرطوا في التعلُّق بأدلة العقول، مُتعلِّلين بعلل شتّى، منها: "أنَّهم أرادوا أنْ يبصِّروا الملاحدة، ويعرِّفوا المبتدعة أنَّ مجرَّد العقول التي يدَّعونها لأنفسهم، ويعتقدون أنَّها معيارهم، لا حظَّ لهم فيها..."[٢٤] وأنَّ العقل هو المعيار المشترك الذي لن يجد الملاحدة سبيلاً إلى ردِّه، أو التشغيب عليه. وبصرف النظر عن مدى صواب هذه التِّعلات من خطئها، فإنَّ الحقيقة التي لا جدال فيها هي أنَّ ابتعاد الدَّرس العقدي عن القرآن الكريم أوقعه في آفة التجريد والتعقيد، وأبعده عن فئات عريضة من المسلمين الذين لم يجدوا سبيلاً إلى إدراك الأدلة العقلية المجرَّدة.

ثانياً: مداخل تطوير الدَّرس العقدي

من الصعب استيعاب كل المحاولات التي قُدِّمت لتطوير الدَّرس العقدي قديماً وحديثاً؛ نظراً إلى تعدُّدها، وتنوُّع مشاربها، واختلاف منطلقاتها. ولهذا فقد استقر الرأي على اختيار نماذج تنتمي إلى الغرب الإسلامي؛ بُغْية ضبط مجال البحث وحدوده. وممّا

[٢٣] الحجر، رزق. **مسائل العقيدة ودلائلها بين البرهنة القرآنية والاستدلال الكلامي**، د.م: منشورات دعوة الحق، السنة 23، عدد223، 1428هـ/2007م، ص129.

[٢٤] ابن العربي، **قانون التأويل**، مرجع سابق، ص176.

حفزنا إلى اختيار هذه النماذج أنَّها تُقدِّم رؤى إصلاحية تحتوي على عناصر منهجية ومضمونية وبيداغوجية-تربوية قابلة للتنفيذ، فضلاً عمّا بينها من التكامل والتظافر.

وتروم المداخل المقترحة التي استخلصناها من تلك النماذج تجاوز المشكلات الثلاث التي بيَّنّاها آنفاً؛ فالتقريب والتيسير مدخل لتجاوز مشكلة التعقيد والتجريد، والمدخل القرآني نقدِّمه لإعادة وصل علم العقيدة بمحضنه الأصلي وهو القرآن الكريم، أمّا مدخل الواقع فيأتي لحل مشكلة انفصال الدَّرس العقدي عن مستجدات الواقع وتحدياته.

1. مدخل التقريب والتيسير:

الغاية من هذا المدخل هي صياغة خطاب علمي يُقرِّب مضامين العقيدة بلغة ميسَّرة تراعي أصناف المتلقّين ومستوياتهم العلمية والفكرية والعمرية. ومن المشاريع العلمية التي يزخر بها تراثنا العقدي في الغرب الإسلامي، والتي التفتت إلى هذا المدخل وأعطته ما يستحقه من العناية والاهتمام، المشروع الذي نذر الإمام السنوسي (توفي: 895هـ) شطراً من حياته لإنجازه؛ إذ صنَّف كتباً كثيرة في هذا العلم، رام بها تقريب مباحثه، وتيسير مطالبه على الناشئة؛ ليسهل عليهم ضبطها وتحصيلها.

ويقوم المشروع التقريبي الذي قدَّمه السنوسي على الأسس الرئيسة الآتية:

أ. **أساس المصطلح**: من الأمور المسلَّم بها أنَّه لا يمكن تصوُّر مسائل العلوم ودراسة مباحثها وقضاياها إلا بعد العلم بالألفاظ والمصطلحات المتداولة في مظانها ومصادرها، وعلى ألسنة أهلها المنتسبين إليها؛ لذا اهتمَّ علماء العقيدة بالتمهيد لمباحثهم بالعُدَّة "المصطلحية" التي لا يستقيم فَهْم مرادهم منها إلا بعد استيعابها والعلم بها. وللسنوسي اهتمام بارز بهذا الجانب، فلا يكاد يخلو مؤلَّف من مؤلَّفاته من بيان المصطلحات الضرورية لفهم قضايا العقيدة واستيعاب مسائلها، ولم يقتصر في ذلك على المصطلحات العقدية والكلامية، وإنَّما أورد حقائق بعض المصطلحات الأصولية والمنطقية، التي يرى أنَّها مفاتيح ضرورية لفهم عقائده ومتونه وشروحه عليها، ويظهر هذا في كتابه "شرح المقدمات" الذي ضمَّنه طائفة من المصطلحات المفاتيح، مثل: النبي، والرسول، والحكم،

والواجب، والمستحيل، والجائز، والمعرفة، والنظر، والتقليد؛ وحقائق الصفات الإلهية، مثل: العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة، وغير ذلك.

ب. أساس التقعيد: اجتهد السنوسي في نظم بعض مسائل علم العقيدة في قواعد دقيقة وكليات جامعة، تساعد المبتدئ على الإمساك بمعاقده، وتفيد المنتهي في جمع أطرافه ونظم جزئياته، وهذا الأساس المنهجي واضح في مختلف مصنَّفاته، وبخاصة في كتابي "شرح الكبرى"، و"شرح المقدمات".

ت. أساس التدرج ومراعاة مستوى المخاطبين: انطلق السنوسي في تدريسه للعقيدة من مختصرات وعقائد صغيرة الجرم، سهلة الألفاظ، مشتملة على أُمَّهات العقائد التي لا يُعذَر أحد بجهلها، مستدلاً عليها بالأدلة والبراهين المختصرة القطعية القريبة لكل مَن له نظر سديد، ثمَّ ارتقى بالمتعلم إلى شروح موسَّعة، يفصِّل فيها ما أجمله في العقائد الصغرى، ويكشف فيها الغطاء عمّا انبهم فيها على المتعلم من المعاني، مراعياً بذلك القدرات الفكرية والعلمية للمتعلمين والمستفيدين منها.

ولبيان قيمة العمل الذي قام به في هذا الجانب، نعرض في الآتي بعض مصنَّفاته العقدية التي يظهر فيها ملمح التدرُّج واعتبار مستويات المخاطبين:

- كتاب "العقيدة الكبرى"، وقد سمّاه "عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمات الجهل وربقة التقليد المرغمة أنف كل مبتدع وعنيد"، وهو أول كتاب ألَّفه في العقيدة.

- كتاب "شرح العقيدة الكبرى"، وقد سمّاه "عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة التوحيد"، وهو شرح للكتاب السابق.

- كتاب "العقيدة الوسطى"، وهو دون كتاب "العقيدة الكبرى" في الحجم.

- كتاب "شرح العقيدة الوسطى"، وهو شرح للكتاب السابق.

- كتاب "العقيدة الصغرى"، وتُسمّى "أم البراهين"، واشتُهِرت أيضاً بالسنوسية، أو عقيدة السنوسي. وهذا المتن لا يزيد على خمس صفحات، كتبها المؤلِّف بأسلوب سهل يستطيع العامي أنْ يفهمه. وقد كُتِب لهذه العقيدة الذيوع والانتشار حتى حفظها

الأطفال والنساء في معظم بلاد الغرب الإسلامي، وصارت تدرَّس في المساجد والبيوت والمدارس والزوايا، وتوضع عليها الشروح والحواشي والأنظام. وقد ذكر السنوسي في مقدمة "شرح أم البراهين" أنَّها عقيدة "لا نظير لها، تزهو بمحاسنها على كبار الدواوين."[٢٥]

- كتاب "شرح أم البراهين"، وهو شرح لكتاب "العقيدة الصغرى".

- كتاب "صغرى الصغرى"، وقد ألَّفه لوالد تلميذه الملالي لمّا ضعف بصره.

- كتاب "شرح صغرى الصغرى"، وهو شرح للمتن السابق كما بيَّن ذلك في مقدمته، قائلاً: "فقد وضعت جملة مختصرة فيما يجب على المكلَّف اعتقاده في حق الله تعالى وفي حق رسله عليهم الصلاة والسلام على وجهٍ يخرج به المكلَّف من ظلمات الجهل والتقليد، فأردت أنْ أُتبِعها بشرح مختصر يكشف عن معانيها كل لبس وتعقيد."[٢٦] وقد كتب السنوسي هذا الشرح بلغة سهلة، وعبارات سائغة خالية من التعقيد.

ث. أساس التنويع في طرائق التأليف: صنَّف السنوسي في هذا العلم مصنَّفات كثيرة، بعضها منثور مثل المصنَّفات التي ذكرناها من قبلُ، وبعضها منظوم مثل "الدهرية"، وهي قصيدة له في نقد مذاهب الدهرية والزنادقة والملاحدة، وبعضها شرح لأنظام كتبها غيره، مثل شرحه على لامية أبي العباس أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري (توفي: 884هـ)، وهي نظم في علم الكلام، وقد شرحها السنوسي بناءً على طلب صاحبها، وسمّى الشرح "المنهج السديد شرح كفاية المريد".

ونختم هذا المدخل بتأكيد أنَّ التركيز على مشروع أبي عبد الله السنوسي في تقريب علم العقيدة وتيسيره، وبياننا لقيمته العلمية والمنهجية، لا يراد منه الوقوف عنده بوصفه نموذجاً وحيداً لا نعدوه إلى غيره، وإنَّما مقصودنا من ذلك الاستفادة من عناصره

---

[٢٥] السنوسي، محمد بن يوسف. **شرح أم البراهين**، د.م: مطبعة الاستقامة، ط1، 1351هـ، ص7.

[٢٦] السنوسي، محمد بن يوسف. **شرح صغرى الصغرى**، مصر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1373هـ/1953م، ص29.

البيداغوجية (التربوية) والمنهجية في بناء خطاب عقدي يراعي قدرات المخاطبين به ومستوياتهم الفكرية والعلمية.

2. المدخل القرآني:

ذكرنا فيما تقدَّم من البحث أنَّ طائفة غير قليلة من علماء العقيدة انصرفوا، في مرحلة من مراحل تدوين هذا العلم، إلى الجدل والرد على المخالفين بأسلوب موغل في التعقيد والتجريد والإلغاز، متأثرين في ذلك بأساليب المنطق الصُّوري، وبأبحاث الفلسفة اليونانية؛ ما جعل كتبهم عارية عن الدليل القرآني أو تكاد. ولتجاوز هذه الآفة، فقد دعا بعض العلماء إلى إعادة وصل هذا العلم بالمحضن الذي نشأ فيه، وهو محضن القرآن الكريم. وهذه الدعوة ليست بجديدة كما قد يُظن، بل هي قديمة قِدم الوعي بخطورة الفصل بينهما، وقد بيَّنّا في الفقرات السابقة أنَّ فِرق الأُمَّة قاطبةً مُجمِعة على كفاية البراهين القرآنية في الاستدلال على قضايا العقائد، وعلى أنَّ القرآن الكريم تضمَّن أدلة العقائد مُفصَّلة أحياناً، ومُجمَلة في غالب الأحيان، غير أنَّ هذه الدعوة ظلَّت حبيسة التنظير، ولم يتم بلورتها على مستوى التطبيق إلا في مشاريع علمية معدودة. ولـمّا كنّا قد ألزمنا أنفسنا في مقدمة هذا البحث بتناول هذا المدخل انطلاقاً من تراث علماء الغرب الإسلامي، فإنَّنا سنقتصر هنا على ذكر مصنَّفين من مصنَّفات هؤلاء، وهما شاهدان على وعيهم بأهمية هذا المدخل وخطورته:

أ. **كتاب "النور المبين في قواعد عقائد الدِّين" لابن جزي الغرناطي** (توفي:741هـ): ذكر الغرناطي في هذا الكتاب عقائد الدِّين التي يجب على جميع المسلمين اعتقادها، وأقام عليها الأدلة العقلية القطعية المستمدة من العلوم النقلية السمعية، واتَّبع فيها ما ورد في الكتاب والسُّنة، وبناها على طريقة السلف الصالح من هذه الأُمَّة،[٢٧] وقد رام من هذا الكتاب تحقيق مقاصد ثلاثة:

---

[٢٧] ابن جزي، محمد بن أحمد. **النور المبين في قواعد عقائد الدِّين**، عناية: نزار حمادي، تونس-الكويت: دار الإمام ابن عرفة، دار الضياء، ط1، 1436هـ/2015م، ص21.

الأول: ذكر الأدلة والبراهين على عقائد الدِّين؛ ليرتقي الناظر فيها عن التقليد إلى العلم اليقيني.

الثاني: بيان أنَّ تلك الأدلة وأكثرها مأخوذة من القرآن الكريم؛ إذ هو حجة الله الكبرى وحبله المتين، وليتبين أنَّ فيه علم الأولين والآخرين.

الثالث: الاقتصار على أُمَّهات المسائل التي جاءت بها الشريعة وتكلَّم فيها السلف، والإضراب عمّا حدث بعدهم من طرق الخصام والجدال، وترك الكلام في الأمور التي شجر بسببها بين الفِرق اختلاف أقوال.[28]

وقد بنى ابن جزي كتابه على ثلاث قواعد، وخاتمة تضمَّنت وصية نافعة تناسب مقصد الكتاب، وذلك على الترتيب الآتي:

القاعدة الأُولى: الكلام في الإلهيات، والقاعدة الثانية: الكلام في الأنبياء والملائكة والصحابة والأئمة، والقاعدة الثالثة: الكلام في الدار الآخرة.

ولتقريب الجهد العلمي الذي قام به ابن جزي تأصيلاً لقضايا العقيدة من القرآن الكريم، نسوق النماذج الآتية:

- الاستدلال على وجود الله تعالى بما نصبه من الآيات في أنواع الموجودات؛ من: الأرض، والسماوات، والنبات، والجبال، والبحار، والرياح، والأمطار، والشمس، والقمر، والليل، والنهار، وغير ذلك من المخلوقات؛ فإنَّها تدل على وجود صانع صنعها، وخالق أبدعها. وتأصيل هذا الدليل من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ (البقرة: 21)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (البقرة: 164) إلى قوله تعالى: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾، وقوله عَزَّ من قائل: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ (الروم: 20) إلى آخر الآيات السّت، وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦﴾ (النبأ: 6) إلى قوله سبحانه: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦﴾ (النبأ: 16)... وكل ما جاء في

[28] المرجع السابق، ص22.

القرآن الكريم في التنبيه على الموجودات فهو يفيد هذا المعنى، وذلك في الكتاب الحكيم كثير جداً.[٢٩]

– الاستدلال على وجود الله تعالى، بتوجيه الفكر إلى النظر في الأنفس؛ فإنَّ مَن نظر في نفسه رأى فيها "من الصنع العجيب والتدبير الغريب ما فيه برهان قاطع على أنَّ خالقاً خلقها، فترتيب خلق الإنسان من ماء مهين، وتركيب عظامه وعروقه على اختلافها، واختصاص كل واحد منها بمنفعته، وسريان الغذاء إلى كل عضو على قدره، واختلاف القوى المخلوقة فيه، أو تخصيصه بالعقل الذي يتميز به عن البهائم، وكيف يرى بالعينين، ويسمع بالأذنين، ويتكلم باللسان، ويبطش باليدين، إلى غير ذلك ممّا فيه من العجائب التي لا تنقضي... والتي تدل بلا شكٍّ أنَّه لا بُدَّ من مدبر دبّره، وخالق أتقنه.[٣٠] وأصل هذا الدليل من القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ (المؤمنون:12) إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥﴾ (المؤمنون: 15)، وقوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ (الذاريات: 21)."[٣١]

– الاستدلال على وحدانية الله من وجوه كثيرة، منها: أنَّ كل شيء مخلوق فإنَّما يخلقه خالق واحد؛ لأنَّ الفعل الواحد لا يصدر من فاعلين، فثبت بذلك أنَّ الخالق واحد، هو الله تعالى. وأصل هذا الدليل من القرآن قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (الفرقان: 3)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ (فاطر: 40)، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ (لقمان: 11).[٣٢]

لن نتوسَّع في إيراد المزيد من النماذج؛ فما ذكرناه كافٍ في التنبيه على أهمية هذا الكتاب في التأصيل لقواعد العقيدة ومباحثها من القرآن الكريم، وهو أيضاً كافٍ في

[٢٩] المرجع السابق، ص25–27.
[٣٠] المرجع السابق، ص27.
[٣١] المرجع السابق، ص27.
[٣٢] المرجع السابق، ص39–40.

الدلالة على وضوح الدليل القرآني وسهولة فهمه؛ ذلك أنَّ الآيات التي ذكرها المؤلِّف تقدِّم القواعد الاعتقادية والأدلة العقلية المركَّبة بلغةٍ واضحة، وأسلوب قريب من عقول المخاطبين وأفهامهم.

ب. **كتاب "العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية" لابن باديس** (توفي: 1358هـ):

أصل هذا الكتاب دروس في العقيدة كان يلقيها ابن باديس في الجامع الأخضر بقسنطينة في الفترة ما بين 16 رجب 1353هـ و 25 صفر 1354هـ (الموافقة لأكتوبر 1934م وماي 1935م). وقد جُمِعت هذه الدروس فيما بعدُ تحت عنوان "العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية".

ويقوم المنهج الذي سلكه ابن باديس في تأصيله لقضايا العقيدة على الخطوات الآتية:

- ذكر القاعدة العقدية أولاً، ثمَّ شرحها، وذكر متعلقاتها.

- إيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على القاعدة، وبيان وجه الشاهد فيها.

- استثمار الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في ترجيح اختياراته العقدية.

ومن المفيد في هذا المقام أنْ نمثِّل للطريقة التي سلكها في التأصيل بإيراد المسائل الآتية:

- مسألة وجوب النظر: يرى ابن باديس أنَّه من الواجب على المؤمن أنْ ينظر في آيات الله، ويستعمل عقله للفهم، وأنَّ جميع الواجبات في الإسلام تجب عليه. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (يونس: 101)، وقوله ﷻ: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥﴾ (الطارق: 5)، وقوله سبحانه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤﴾ (عبس: 24)،

وقوله عَزَّ من قائل: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾ (الغاشية: 17-20).[٣٣]

– حقيقة الإيمان: يذهب ابن باديس إلى أنَّ المقصود بالإيمان الشرعي هو التصديق الجازم بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، حلوه ومره. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ (البقرة: 285)، وقوله ﷺ: "أنْ تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وتؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومره".[٣٤] [٣٥]

– مسألة زيادة الإيمان ونقصانه: يرى ابن باديس أنَّ الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بزيادة الأعمال، وينقص بنقصها. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ (الأنفال: 2)، وقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ (آل عمران: 173).[٣٦]

– مسألة المعاد والبعث: يرى ابن باديس أنَّه يتعيَّن على المؤمن أنْ يُصدِّق تصديقاً جازماً بالمعاد والبعث، فلا يساوره شكٌّ في أنَّ الله تعالى يحيي بعد الموت، ويعيد الأرواح والأجساد من القبور، ومن حيث كانت، إلى الموقف العظيم؛ للمحاسبة عن الأعمال والجزاء عليها، فكل ذلك جائز في قدرته تعالى، وواجب في عدله وحكمته.[٣٧] والذي يدل على هذا من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (الجاثية:26)، وقوله ﷻ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ (الأنبياء: 104)، وقوله سبحانه:

---

[٣٣] ابن باديس، عبد الحميد. **العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية**، رواية وتعليق: محمد الصالح رمضان، الشارقة: دار الفتح، ط1، 1416هـ/1995م، ص32.

[٣٤] رواه مسلم من غير ذكر (حلوه ومره). انظر:

– مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. **صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ)**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت، كتاب: الإيمان، باب: الإيمان والإسلام وهو من خصاله، حديث رقم10.

[٣٥] ابن باديس، **العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية**، مرجع سابق، ص41.

[٣٦] المرجع السابق، ص42.

[٣٧] المرجع السابق، ص96-97.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ (القصص: 85)، وقوله عزَّ من قائل: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ (طه: 55).

والناظر في هذه المسائل يقف على أنَّ كتاب "العقائد الإسلامية" مفيد فيما نحن بصدده من وجهتين؛ فهو مفيد في تقريب قضايا العقيدة إلى الناس؛ إذ صاغه مؤلِّفه بأسلوب بسيط ولغة سلسلة يستطيع الجميع فهمها واستيعابها، وهو مفيد أيضاً في التأصيل لقواعد العقائد ومسائلها من القرآن الكريم والحديث الشريف. إذن، فهو مشروع للتقريب والتأصيل في آنٍ معاً.

3. مدخل الواقع:

بيَّنّا فيما تقدَّم أنَّ الدَّرس العقدي درس واقعي النشأة والتكوين؛ فمنذ نشأته الأُولى وهو موصول بهموم الأُمَّة وقضاياها الحقيقية، وكان من جملة أهدافه معالجة المشكلات الفكرية والثقافية التي تواجه الجماعة المسلمة، بيد أنَّ هذا الدَّرس سرعان ما ابتعد في بعض الفترات عن معانقة هموم الأُمَّة وتطلعاتها وآمالها.

والغاية من هذا المدخل إعادة وصل الدَّرس العقدي بهموم المسلمين الحقيقية، وبمستجدات واقعهم وتحدياته ومشكلاته المعرفية والاجتماعية والسياسية. وسيراً على المنهج الذي التزمناه في هذا البحث، وهو تقديم بعض النماذج المعبِّرة عن المداخل المقترحة للتطوير، من التراث العقدي لمالكية الغرب الإسلامي، نقترح هنا الاستفادة من الجهد الذي قام به أبو عبد الله السنوسي حين ربط تأليف كتبه العقدية بمعالجة بعض الآفات التي كانت سائدة في محيطه الاجتماعي والسياسي.

وحتى نُبيِّن قيمة العمل الذي قام به، لا بُدَّ من ذكر بعض الإشارات الدالة على السياق السياسي والاجتماعي والفكري الذي نشأت فيه أفكار السنوسي العقدية.

عاش السنوسي في القرن التاسع الهجري، معاصراً لدولة بني زيان بتلمسان. وكانت هذه الدولة عرضة للاضطرابات والتقلبات بسبب تعرضها لهجمات الإسبان، وتقلبها بين الخضوع للحفصيين بتونس، وللمرينيين بالغرب. واستمر ذلك بعد وفاة السنوسي، ولم

يحسم هذا الاضطراب إلا مجيء العثمانيين الذين وضعوا حداً لهذه الدولة، ورسموا حدود الجزائر الحالية تقريباً، حيث اعتبروا أراضي بني زيان إيالة كاملة من إيالات المغرب، ونقلوا العاصمة من تلمسان إلى الجزائر.[٣٨]

وغير بعيد عن هذه الرقعة الجغرافية، كان المسلمون في الأندلس يعيشون مأساة حقيقية في مواجهة الزحف القادم من الشمال. ولـمّا وُلِد السنوسي كان قد بقي للمسلمين إمارة واحدة في الأندلس، هي إمارة بني الأحمر بغرناطة، وقد توفي وهي قاب قوسين من الوقوع بين أيدي النصارى. هذا عن الحالة السياسية، أمّا من الناحيتين الاجتماعية والفكرية فقد أشار السنوسي إلى بعض ملامحها في ثنايا بعض مصنَّفاته العقدية، ومن تلك الملامح:

-كثرة أدعياء التصوف والمشعوذين، الذين أفسدوا عقائد الأُمَّة، وخدَّروا المجتمع، ونشروا بين أفراده لوثة التقليد والركون والتبعية العمياء. قال السنوسي واصفاً هؤلاء: "(لقد) تعرَّض الدجاجلة، ممَّن انتمى إلى الرهبانية على غير أصل علم، لقطع طريق السُّنة، بحبائل نصبوها مزخرفة من حبائل مردة الشياطين."[٣٩]

- فشو الجهل والتقليد بين الناس، وبخاصة بين العوام من النساء والصبيان وأهل البادية؛ ففي زمانه قلَّ العلماء العاملون العارفون، وانعدم المتعلمون الصادقون الفطنون، وفاض بحر الجهالة، وقلَّ العلم أو كاد.[٤٠]

- سيادة البدع، وفشو الاعتقادات الفاسدة والجهالات المركَّبة بين الناس. قال السنوسي في ذلك: "وأمّا أزمتنا هذه، فالسُّنة فيها بين البدع كالشعرة البيضاء في جلد

[٣٨] للاستزادة، انظر:

- التنسي، محمد بن عبد الله. **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، تحقيق وتعليق: محمود آغا بوعياد، الجزائر: موفم للنشر، 2011م.

[٣٩] السنوسي، محمد بن يوسف. **شرح السنوسية الكبرى المسمى عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد**، تحقيق: عبد الفتاح بركة، القاهرة: دار القلم للنشر والتوزيع، ط2، 1434هـ/2013م، ص50.

[٤٠] انظر:

- السنوسي، **شرح أم البراهين**، مرجع سابق، ص6.
- السنوسي، **شرح السنوسية الكبرى**، مرجع سابق، ص50.

الثور الأسود، فمَن لم يجاهد اليوم نفسه في تعلُّم العلم، وأخذه من العلماء الراسخين، وما أندر اليوم وجودهم وأعز لقاءهم، لا سيما في هذا العلم، مات على أنواع من البدع... وهو لا يشعر، وأكثر الناس اليوم ليس في درجة الاعتقاد التقليدي المطابق، بل في درجة الاعتقاد الفاسد، والجهل المركَّب."[41]

- ظهور الفتن، وانتشار المعاصي والذنوب بين الناس. قال السنوسي في "شرح الوسطى": "والكل في هذا الزمان الذي قلَّ خيره، واستعسر وكثر شرُّه واستيسر، يصدقون فيما يدعون؛ إذ المصيبة في زماننا هذا قد تمكنت من القلوب حتى امتنعت من حسن الاستماع، فضلاً عن الفهم والانتفاع لما تراكم عليها من ظلمات الفتن وران الذنوب، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون."[42]

هذه بعض الإلماعات عن الواقع الذي وُلِدت فيه أفكار السنوسي، والناظر فيها ينتهي إلى أنَّ بعض الأفكار والنظريات العقدية التي بثَّها في مصنَّفاته ليست سوى جواب عن بعض التحديات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي واجهت الأُمَّة في عصره. فإلحاح السنوسي على النظر العقلي ما هو إلا تأكيد منه على محاولة إصلاح مجتمعه الذي بدأ يغرق في أوحال التقليد والجمود، وتشنيعه على المشبهة ما هو إلا رد على فكر التشبيه والتجسيم الذي أخذ ينتشر بين أبناء بلده... وهكذا، فإنَّ البُعْد الواقعي حاضر بوضوح في كثير من اختيارات السنوسي العقدية.

خاتمة:

قدَّمنا في هذا البحث وصفاً لأبرز المشكلات التي عطَّلت الدَّرس العقدي عن أداء وظائفه وأدواره التي لأجلها نشأ، ومنها: التصدي للتحديات التي تواجه عقيدة الأُمَّة وقيمها، وحلّ المعضلات التي تحول بينها وبين الابتكار والإبداع والاجتهاد. وقد قصرنا

---

[41] المرجع السابق، ص50.

[42] السنوسي، محمد بن يوسف. **العقيدة الوسطى وشرحها**، تحقيق: يوسف أحمد، د.م: دار الكتب العلمية، د.ت، ص16.

الحديث على ثلاث مشكلات رئيسة، هي: مشكلة التجريد والتعقيد، ومشكلة فصل النظريات العقدية عن الواقع، ومشكلة عدم الاستفادة من المنهج القرآني في تقديم العقيدة وبيانها للناس. ثمَّ قدَّمنا بعض المداخل التي رأينا فيها علاجاً ناجعاً للمشكلات الآنف ذكرها.

ولا بُدَّ قبل عرض أهم نتائج البحث وتوصياته من التنبيه على أمرين يمثِّلان الخلفية النظرية المؤطرة له:

الأول: التركيز على مشاريع علمية بعينها لا يراد منه الوقوف عندها بوصفها نماذج لا نعدوها إلى غيرها، وإنَّما وقع اختيارنا عليها لاندراجها ضمن المجال المعرفي والمكاني الذي اخترناه لهذا البحث.

الثاني: الاستلهام من نماذج علمية معيَّنة لا ينبغي أنْ يوقعنا في شَرَك "التعميم" وآفة "الإسقاطية". وبتعبير آخر، فإنَّ استحضار هذه النماذج لا يُقصَد به الدعوة إلى اتِّباعها حذو القُذَّة بالقُذَّة، وإنَّما المقصود استلهام الأصول التي انبنت عليها، والغايات التي سعت لتحقيقها، ممّا لا عبرة فيه بوقت ولا بزمان، ثمَّ محاولة الاستفادة منها في إصلاح الدَّرس العقدي المعاصر وتطويره.

ويمكن إجمال النتائج التي توصَّل إليها البحث في الآتي:

- الدَّرس العقدي لا يمكن أنْ يؤدي الدور المنوط به إلا إذا كان موصول الصلة بالهموم الحقيقية للأُمَّة، مضطلعاً بمهمة الإجابة عن الأسئلة الوجودية والفكرية التي تواجهها. والمدخل الرئيس لذلك هو ربط هذا العلم بمشكلات الحياة المعاصرة وتحدياتها.

- استفادة علماء العقيدة الأقدمين من الانفتاح على النتاج الفلسفي والمنطقي، وهو انفتاح أفاد الدَّرس العقدي من الوجهتين: الاستدلالية، والمنهجية. غير أنَّ إسراف بعضهم في استعارة تلك المناهج، وتوظيف مفاهيمها في صياغة قضايا العقيدة، أدّى إلى نتائج سلبية كما تَبيَّن في ثنايا البحث. ولا مناص اليوم، إذا أردنا لهذا الدَّرس أنْ يستعيد حيويته وحرارته، من أمرين؛ أولهما: التخفيف من الأبحاث النظرية؛ شرط ألا يؤثِّر ذلك في بنية

العلم، وثانيهما: الاستفادة من ثمار العلوم الحديثة ومناهجها أسوة بالأقدمين الذين استفادوا من علوم زمانهم.

– ربط القضايا العقدية بالقرآن الكريم هو أنجع الطرق لتقريبها إلى القلوب والعقول.

وبناءً على هذه النتائج، يوصي البحث بالآتي:

– توجيه أنظار الباحثين إلى دراسة نماذج أُخرى من المؤلَّفات القديمة والمعاصرة، التي يمكن أنْ ترفد الدَّرس العقدي ببعض الأفكار التجديدية والإصلاحية.

– استثمار النماذج المذكورة في ثنايا البحث عند صناعة المقررات والمناهج الدراسية؛ إذ تحتوي على عناصر بيداغوجية/تربوية قيِّمة، يمكنها تخليص الدَّرس العقدي من بعض آفاته، وتحفيز التلامذة والطلاب إلى التفاعل معه.

– فتح الدَّرس العقدي المعاصر على أُفق جديد، يتجاوز الرؤية التقليدية التي تحصره في الإلهيات والنبوات والسمعيات، وذلك بتوسيع مجالات اهتماماته لتشمل كل القضايا الفكرية والعقدية المعاصرة.

– وصل الدَّرس العقدي بالعلوم الإسلامية الأُخرى، مثل: علم الأخلاق، وعلم المقاصد، ووصله كذلك بالعلوم الإنسانية، مثل: علم الاجتماع، وعلم التاريخ.